

الخدمة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

وقفت نعيمة أمام المرأة تنظر فيها ، وتأمل نفسها بادية في صقالها ، وفي يدها منفضة من الريش الناعم ، ثم صوبت عينها إلى أدوات الزينة المرصوفة . . لقد صارت الآن خادمة وصار عملها أن ترتب هذه الغرف الويرة الأثاث . . فلشد ما انتقلت بها الأحوال ! منذ سنتين اثنتين ، لا أكثر ، كانت تنام على مثل هذا السرير . . وكان لها خدم ، وحولها حشم . . وكانت قلما تقوم قبل الضحى . . كانت تفتح عينها ، وتمطى ، وتثأب ، وتنظر إلى الساعة الدقيقة على معصمها

نحتاج إلى مؤتمرات تبيد الخوف إلا الخوف من الذل والعار ، وتبيد السيطرة إلا احتراماً لخلق أو قانون

ما أصعب هذه المؤتمرات وما أشقها وما أخرجنا إليها ! أنها تكون من رجال من أمة واحدة ، ولكنها أصعب من مؤتمر مثلت فيه كل الدول ، لأنها مؤتمرات لا تلغى قانوناً موضوعاً ، ولكنها تلغى أخلاقاً موروثة ، وتقاليدها سمرها الزمان ، وتحطم أو تآدأ سر عليها الحاكم الظالم المستبد حتى صلبت الأرض عليها

لست أو من بنظرية العمال العاطلين حتى يصعب على الأجنبي والمصري الحصول على العيش الرغد على السواء . فأما إن سئل تحصيل العيش على الأجنبي وصعب على المصري فليست النظرية - إذن - نظرية عمال عاطلين ، ولكنها نظرية فقر في الأخلاق ، وجهل بفن الحياة

فهل لنا وقد نجحنا في مؤتمر الامتيازات الأجنبية أن نوجه هممنا لمعالجة أختها الامتيازات التي هي من نوع آخر علنا نتجح أيضاً ؟

أحمد أمين

فتعلم أن الشمس قد ارتفعت ؛ وأنه آن لها أن تنهض . وتمد يدها إلى الزر ، وتضغط فتجىء الخادمة - بهية - وتسألها : نعم يا ستي ؟ فتقول لها أعدى الحمام ، فتفعل وتجيئها قبل ذلك بالشاي وتنحي الستائر . . وتهم بهية بالخروج فتناديها وهي تتقلب على السرير من الكسل ، والنبي يا بهية دوسي لي على كتفي . . كان هذا منذ سنتين . . كأنه حلم . . زالت النعمة كلها وأفلس أبوها وإفلاساً بتدليس . . وانتحر . . وتركها تملك قوت يومها . . استطاعت أن تحيا ، على نحو ما ، بضعة شهور ، ثم لم يبق بد من ابتغاء الوسيلة إلى القوت . . وهذا أول بيت غريب دخلته لتعمل فيه

وانتقلت نعيمة إلى السرير ، وتناولت الوسائد الصغيرة المبعثرة عليه ، لتصلحها وترتبها ، فأوحى إليها منظر السرير الواطئ اللين الشعور بالحاجة إلى التغطى . . أن تستلقي عليه وتمد رجلها وتفتح ذراعها وتثأب وتقول : آ . . آ . . الخ . . ولم لا ؟ . . إن هذا الجناح من البيت ليس فيه أحد . . وقد خرج سيدها منذ ساعة وهي الموكلة بهذه الناحية . . وليس هناك من تخشى أن يفاجئها سوى : حسن . . ما أثقله ! هو رئيس الخدم . يدخل في رحته من يشاء ويخرج منها من يشاء . لم يكن في بيتها هي أيام النعمة رئيس للخدم . كانوا جميعاً خداماً ، وكانت هي الرئيسة دون سواها . . أمها ميتة ، وأبوها يدع لها هذه الأمور . . ولكن جميل بك يؤثر نظاماً غير هذا . . ولا سيما بعد أن فسد ما بينه وبين زوجته فخرجت من البيت

وجلس على السرير ، وهي تحدث نفسها بأنها لاشك تستطيع أن تسمع وقع قدمي حسن ، إذا خطر له أن يجيء إلى هذه الناحية . فانه ضخم غليظ ثقل . . ومشيه دبدي . ومالت على السرير ، وأراحت جسمها البض على فراشه اللين ، وحدثت نفسها ، وهي تحس أن جسمها يسترخى ، أنها خليفة أن تحمد الله على التوفيق إلى العمل ، في بيت كهذا ، بعد الذي نزل بها ، وإنها إذا كانت لاتنام على هذا السرير فإن من بواعث سرورها أن يكون أمره موكولاً إليها ، وأن يكون في وسعها أن تروح ونجى في هذا البيت الحسن ، وأن تكون في خدمة

هذا السيد الكريم الوديع المذهب .. الحمد لله على كل حال ..
ولو أن سيدها رآها ، وهي راقدة على سريرها ، وأخذت
عينه هذا المنظر الفاتن ، لكان الأرجح أن يقف مفتوح الفم
من دهشة الإعجاب ولسحره ؛ وسمره في مكانه ، هذا الخط
التموج الذى بدأ من فخذه الأملس ، ويرتقى ويستدير مع
ردفها ، ثم ينحدر فى لين مع خصرها ، ثم يعود فيرتفع حتى
يبلغ الحلة الحوة الناثرة من ثديها الراسخ .. وكان شعرها
الذهبي .. رصلا ، كأنه أمواج من النار على الوسادة . وأسندت
نعيمه خدها الأسيل على الحرير الناعم ، وتنهت ، وخطر لها
أن حظها على كل حال خير مما كان يمكن أن يكون .. كل شئ ،
هنا حسن ، الاحسن .. فانه دميم غليظ ، وثقيل الدم بارده ،
وفظ شرس ... ونظراته أعوذ بالله منها ! ... إنها لتعلق
بصدرها ، فتحس أنها نفذت إلى ماتحت ثيابها ، فكأشها واقفة
أمامه عارية لا كاسية ! ... وما أكثر ما يلبس كتفها ، وهو
يحدثها ، أو يدعوها إلى الوقوف ، .. قسرى الرعدة فى بدنائها ..
وأصابه ١٠٠٩ .. يا حفيظ ! .. قصيرة ، غليظة ، مبططة !

وأغفت نعيمة ، وهى تفكر فى هذا وما إليه من مظاهر
حياتها الجديدة ، ثم انتفضت قائمة وفى يقينها أن بعضهم ينظر
إليها . ولكنها لم تر فى الغرفة أحدا ، فلا شك أنها كانت تحلم
أو لعل هذا ضميرها يزجرها عن الاجترار والتسحب بهذه
الطريقة

ووقفت نعيمة وأجالت عينها فيما حوّلها ، فلهجت زجاجة
عطر صغيرة ، فقد كانت فيما مضى تتخذ مثلها ، بل كان هذا هو
العطر المفضل عندها . واضطربت يدها ، وهى تناول الزجاجة .
وترفع عنها الغطاء .. وأدنتها من أنفها الجميل ، لتشم ، وتنعم
بالأرج المقترب .. وإذا كان لا تسعها الآن أن تعطر ، فلا أقل
من متعة الأنف .. وما البأس .. وأحست وهى تنشق العطر
الخفيف بالحنين إلى الأيام السالفة .. وتفلتت الزجاجة من
بين أصابعها فارتفعت كفها الرخصة ، بسرعة ، إلى فمها ،
لتكتم صرخة جزع حين رأت الزجاجة تهوى على السجادة ،
وقد حتمت السجادة أن تتكسر ولكن ما فيها أريق كله ، وملا
الغرفة بارجح ، فصار المكان كأنه بستان زهر . وصوبت عينها

إلى السجادة فرأت العطر قد رسم دائرة كبيرة داكنة على
النقوش الفارسية الجميلة ، فالتحنت والتقطت الزجاجة الفارغة ،
وردتها إلى مكانها . وسمعت فى هذه اللحظة صوتا فريعت
ودارت على عقبها ، فإذا حسن أمامها يتنهد النظر كأنما يريد
أن يأكلها بعينه ، وكان قد دخل كالقطة ، وساعده لين السجادة
السميكة على إخفات صوت قدميه الغليظتين

وكان حسن ينهج كأنما كان يجرى . وكانت أنفاسه تروح
ونجي . بسرعة ، وعيناه كالجرتين ، ونعيمة ترى هيئته ، وترعد
كأنها فى ثلاجة ، وقد أيقنت أنها فقدت عملها .. وهل يبقيا
حسن وقد رأى ما صنعت ١٠٠٩ .. ربما .. فما صنعت شيئا فى
الحقيقة سوى أن زجاجة عطر سقطت من بين أصابعها ؛
ولكن الرجل فيه جفوة وغطرسة ، وهو قاس ، وقد أطفاه
أن سيده ترك له أمر الخدم .. فهل يطردها .. أم تراه سترقى
بها ويعفو عنها ؟ ..

ولم تمض فى تفكيرها ، فقد مد حسن يديه إليها ، بفتة ،
وتناول كتفها - أو على الأصح ثوبها على كتفها - وهزها
وقال لها : سيكون هذا آخر لعبك هنا ،

فترسلت إليه ، وأقبلت عليه تستعطفه ، وتقول له إنها
محتاجة إلى البقاء ، وأين تذهب إذا طردها ؟ ..
فقال بجفوة : تريقين زجاجة ثمنها ثمانون قرشاً وتظنين
أن فى وسعك أن تبقى ؟

فأيقنت نعيمة أن هذا آخر عهدا بالبيت الجميل ، والسيد
الوديع الطريف ، وصار صدرها يعلو ويهبط .

ولم تفت حسن حركة صدرها المغرية ، فدنا منها وقال :
ثم إنى رأيتك راقدة فوق هذا السرير أيضاً ،

فكادت نعيمة تسقط على الأرض ، وأحست أن رجلها
تخذلانها .. ستفقد الآن عملها على التحقيق !! ومن ذا الذى
يستخدم مثلها وهى حديثة عهد بالخدمة ؟ . وكانت يدا حسن
لا تزالان على كتفها فشدهما على جسمها ، حتى لقد أحست
نعيمة أن أصابعه انغرزت فى لحمها ، وشعرت بأنفاسه الحارة
على وجهها وسمعتة يقول : إذا أردت البقاء فليس هناك إلا
طريقة واحدة ،

وكانت نعيمة تعرف أن له أن يخرج الخدم، فقالت وهي ذاهلة : كيف ؟ ما ذا تعنى ؟ ،

وكانت تعلم ما ذا يعنى ، وتقرأه في عينيه ، ولكنها كانت تؤثر الطرد والجوع على هذا .. كلا .. أبدأ
فقال : « إنك تعرفين ما أعنى .. لقد رقدت على هذا السرير مرة .. ارقدى عليه مرة أخرى ،
فقرعت وإن كانت تعلم مراده ، وصاحت به : « أبدأ ..
مستحيل ،

ولكن حسن حملها كالدجاجة بين ذراعيه ، وألقاها على السرير ، وركع أمامها ، وأهوى بشفتيه الغليظتين على غلاتي شفتيها الرقيقتين ، وكانت يداه قاسيتين ، وكانت تجرحان جسمها الغض ، وهي تحاول أن تفلت منه ، وهو يشد عليها ؛
وهمت بأن تصرخ فوضع كفه على فمها ، وأخرسها ، ثم تناول ثوبها عند صدرها وجذبه فتمزق وتعبرى صدرها فأكب عليها كالجنون ، فلم تعد تطيق الصبر ، وفضلت أن تخرس عملها ، وأن تتصور وتقول في الطريق ، وأطلقتها صيحة مجلجلة خليقة أن تجتمع عليهما كل من في البيت فاتفق حسن قائماً وصاح بها بدوره ، « إنك مطرودة .. أخرجي ، وشرع يخرج من الغرفة بسرعة قبل أن يجيء أحد على صوتها ، وإذا بسيدته في الباب .

وقال جميل بك : « ما هذا ؟ »

فقال حسن : « سيدى .. لقد رأيت نعيمة ترقد على هذا السرير ! ولم يكفها هذا ، بل أراقت زجاجة العطر ..
ولكن جميل بك لم يكن يسمع شيئاً مما يقول حسن ، وإنما كان ينظر إلى نعيمة ، وهي واقفة في هذا الثوب الذي صار هلاهيل ، وكانت تجمع يديها على صدرها لتستره .
ولكنها لم تستطع أن تستر منه إلا قليلاً .. والتفت جميل بك من نعيمة المطرقة المتقدة الوجه من الحياء إلى هذا الخادم النذل وصاح به : « أخرج فانك أنت المطرود ..
فخرج وظهره مقوس

ثم التفت جميل بك إلى نعيمة وقال : « إنى آسف لما حصل .
لم أكن أنصوّر أن هذا الرجل الذى ائتمنته وحش ...
فلننسه ... »

فأدارت نعيمة وجهها إلى حيث أريقت الزجاجة وقالت
لقد سقطت مى .. أريقت كلها ولم يبق فيها ولا قطرة ،
فقال جميل بك ببساطة : « لا بأس .. لا بأس .. إذا كنت تستحقين عقاباً ، فقد لقيت فوق ما تستحق أية مجرمة صغيرة مثلك ،

فابتسمت نعيمة ، وكانت لا تزال تحاول عبثاً أن تضم طرفي الثوب الممزق الذى أصارته يدا حسن كالعباءة لولا ضيقه . ومشى جميل بك إليها وقال لها وهو يلبس الثوب : لم يعد هذا يصلح ، وأشار إلى خزانة الثياب وقال : اخلعه وخذى شيئاً من هنا بدلا منه . ولم يتركها تفعل ما أمرها به ، بل نزع عنها فصارت أمامه في ثيابها التحتية ، وهي كافية للستر ، ولكنها تظهر من الصدر والكتفين أكثر مما يكشف في العادة . على أن جميل بك لم يكن ينظر إلى ما بداله من جسمها ، بل إلى نقاسة الحرير الذى تلبسه تحت هذا الثوب الممزق ، فقد هز رأسه كالمتعجب ، ومضى إلى الخزانة فجاء منها ثوب من أثواب زوجته ألقاه إليها ومشى إلى النافذة . ولم يخف على نعيمة معنى النظرة فقد كانت صريحة فارتدت الثوب وقالت : « هذه الثياب التحتية بقية من زمن النعمة وقد اشتريتها بنفسى ،

فدار وقال : « إيه ؟ »

فقالت ببساطة وابتسام : « لقد كنت أستطيع أن أشتري ما أريد .. قبل الكارثة ،

فذهب إلى السرير وقعد عليه وقال وهو مقطب : « ما اسمك ؟ اسمك كله ،

فذكرته له فقال : « اسمى ... هل كان أبوك تاجراً في الجزاوى ... ؟ »

قالت : « نعم ،

قال : « وماذا صنع الله به حتى احتجت إلى هذا ؟ »

قالت : « مات ... اتحرر ... »

فقال : « اممم ! ... إلى آسف ... ، لم أكن أعرف هذا ... لو كنت أعرفه لما تكلمت بهذه اللهجة عنه ،

فابتسمت ولم تستطع أن تقول شيئاً . فقال وجذبها إليه

وأجلسها بجانبه على السرير : « اسمعي ... أن مثلك لا يجوز أن تعمل كخادمة ،

فقلت باخلاص: إني مسرورة ... وجودي هنا خير
 بما كنت أنتظر ... والآن اسمح لي أن أذهب وأغير الثوب
 وأرد هذا،

وأشارت إلى الثوب الذى كساها فقال : خله لك ...
وغيره أيضا ... كل ما فى الخزانة خذيه ،

فقلت ، سيدى ... لم أعتقد أن آخذ شيئاً من أحد ،
قال وهو ينهض ، أوه ... هذه مسألة يسهل أن نسويها

« فيما بعد ... »

وكانت هي قد نهضت أيضا فوقها متقابلين . وقد يكون
الأرج المتضوع في الغرفة أو غيره هو الذي أدار رأسيهما
فقد مال عليها فلم تبعد ، ولثم فمها . وكانت القبلة في أول
الأمر خفيفة — لمساً لا أكثر — ولكن الأيدي ارتفعت
إلى الأكتاف فكان عناق طويل

وقال جميل بك نعيمة ... إنك ساحرة ... كان دائما
يخطر لي أنك لست من الخدم ... ويخيل إلى أنك ستبقين
هنا ... سيده ...

وكان قلب نعيمة يخفق بشدة فأنات عنه قليلا وهي تفكر
في معنى ما سمعت ثم قالت « ولكن الست ؟
قال « لا تقولى الست كأنك مازلت خادمة ،
قالت وهي تضحك « زوجتك إذن ؟ »

قال وآه ... نسيت أن أخبرك أننا اتفقنا - أبوها وأنا -
على فض الأشكال بالحسنى ... لا نحكم ولا شئ ... طلقها
اليوم وانتهى الأمر ،

قال : « الست آسفا ؟ »
قال وكلا ... كان هذا أحسن حل ... حياتنا مستحيلة ...
لاوافق ،

ولأول مرة منذ سنتين شعرت نعيمة أن لها بيتا، ونظرت إلى السرير — سريرها الآن، أو هو سيصبح سريرها بعد العقد ... ثم ردت عيناها إلى جميل بك فالتفت الشفاه مرة أخرى في قبلة معسولة

واستمر المورييسكيون على عزمهم واهتمامهم ، ووجهوا بعض الكتب خفية إلى أمراء الثغور في المغرب يطلبون إليهم الغوث والعون ؛ فوقع كتاب منها في يدها كمرغناطة ؛ وتقول